

الحركة الإسماعيلية في اليمن

استقر الأئمة الإسماعيليون في بلدة سلمية - سوريا ،
واتخذوها قاعدة لهم ، ومركزاً لتوزيع تعاليم حركتهم ، بعد
أن هاجروا إليها من الجزيرة العربية فراراً من سيف العباسيين .
وقد سمو أنفسهم « القداحيين » وأعلنوا أنهم حجاج للإمام
المستور المهدي المنتظر الذي ينحدر من الإمام جعفر بن
محمد « الصادق » ، وقد ظل هؤلاء الأئمة يقومون بدعوتهم
على هذا الأساس واحداً بعد آخر بطريقة سرية خوفاً من
العباسيين الذين كانوا يحصدون عليهم كل حركة وسكنة ،
حتى ظهر الإمام « عبيد الله المهدي » الذي وجه اهتمامه إلى
اليمن ، وعدّها من الأقطار التي يجب أن يكون فيها للإسماعيلية
دولة كبرى ، ولهذا يقول أكثر المؤرخين إن نشاط الدعوة
الإسماعيلية في اليمن بدأ في عهد الإمام المستور « الحسين بن أحمد »
والد الإمام « عبيد الله المهدي » ، وداعيه ابن حوشب « منصور
اليمن » وعلى بن الفضل الحبشاني ، ولكن لا بد من القول بأن
بذور هذه الدعوة قد غرست في اليمن قبل هذا الوقت .
ويمكن القول إن الدعاة الإسماعيليين بدعوا نشاطهم في اليمن

منذ عهد الإمام « محمد بن إسماعيل » ولكن على نطاق ضيق جداً وبصورة سرية. وفي أواخر القرن الثالث الهجرى أصبحت اليمن قاعدة رئيسية لنشر مبادئ الحركة الإسماعيلية في كثير من بقاع العالم الإسلامى ، كعصر والمغرب والحجاز وسواها ، وساد الاعتقاد فى تلك الأقطار أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم فى اليمن ، وأن المهدي المنتظر سيرفع علمه فى أرجاء تلك البلاد السعيدة ، ولكن الشئ الذى يمكن تقريره فى هذا الصدد هو أن الحركة الإسماعيلية لم تظهر كقوة ذات تأثير فى إقليم اليمن إلا فى عهد الإمام « عبيد الله المهدي » الذى انتقل من سلمية إلى المغرب .

فى تلك الفترة كانت اليمن تابعة للدولة العباسية ، وكان الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم ، وكانت صناعاً حاضرة لهم ، ولكن الأمور فيها لم تكن مستقرة استقراراً تاماً ؛ لأن السلاطين والأمراء اليمنيين كانوا يتنافسون فيما بينهم فى سبيل تدلى الحكم من قبل الخلفاء العباسيين ، وكذلك فى جزيرة العرب بصفة عامة كانت الأمور غير مستقرة وبسبب الثورات التى قام بها العلويون فى بلاد الحجاز واليمن ، وبسبب ظهور القرامطة الإسماعيليين فى بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامة وعمان ، وبسبب نشاط الحركة الإسماعيلية فى سلمية - سوريا

وهدفها قلب النظام السائد في العالم الإسلامي .

وقد كان لهذه الأحداث أثر غير مرضٍ في الجزيرة العربية بأسرها ، فصارت في شبه عزلة ، كما تأخرت في النواحي الاقتصادية والعلمية ، ولم يكن في تلك الأيام ببلاد اليمن بصفة خاصة وحدة سياسية تجمع شمل الأقاليم والولايات التي أنهكتها المنافسات الداخلية والاختلافات المذهبية تحت لواء واحد ، وتقود الجميع نحو هدف واحد ، وكانت الولايات في هذه البلاد شبه مستقلة عن الدولة العباسية إدارياً وسياسياً لضعف الخليفة عن حربها ، ولكنها لم تستطع الاستقلال عنه دينياً ، لأن الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعته الخليفة لتثبيت سلطانهم ، فكان بنو زياد يقيمون في زُبيد ، وهم من ولد عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ، وقد ولي محمد ابن زياد اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسي سنة ٢٠٣ هـ ، وكان بنو يعفر في صنعاء ، وهؤلاء قامت دولتهم في اليمن في أواخر عهد المتوكل ، وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الخواري نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان والياً للخليفة المعتصم على نجد واليمن ، ولما توفي عبد الرحيم خلفه ابنه يعفر ، وهو رأس الدولة وباعث استقلالها سنة ٢٤٧ هـ ، واستمر أعقابه في صنعاء حتى سنة ٢٨٧ هـ وهو من أولاد

التبابعة من حمير ، ثم دخل بنو يعفر تحت سيادة بنى زياد حيث استمرّ الحكم في دولتهم حتى خلع أبو الجيش إسحاق ابن إبراهيم طاعة العباسيين سنة ٢٨٩ - ٢٩١ هـ ، وحلت في عهده عوامل القلق والاضطراب التي أدت إلى عدم الاستقرار وفقدان الوحدة السياسية ، ومن أهمها ظهور الإمام الزيدى الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي سنة ٢٨٠ هـ الذي نزل « صعدة » لنشر دعوة الإمام زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب وقد اتبعه عدد غير قليل من القبائل التي كانت تميل إلى التشيع فصارت الزيدية من يوم ظهوره من أهم العناصر في حياة اليمنيين ، وهكذا أصبح في بلاد اليمن بعد ظهور منصور اليمن سنة ٢٦٨ هـ أربع ولايات : الزيدية في زبيد ، واليعافرة في صنعاء ، وبنو الرس في صعدة والدولة الإسماعيلية تحت قيادة ابن حوشب « منصور اليمن » وعلى بن الفضل .

وقد أدّى هذا الاضطراب السياسي إلى كثرة النزاع بين الولايات ، أو بلغة أصبح بين زعماء كل ولاية مما زاد الطين بلة ، ومهد لقيام الدولة الإسماعيلية التي ظهرت في اليمن سنة ٢٦٨ هـ ، وسارت على قواعد من التنظيم البارع .

ونتيجة لظهور هذه الدولة واستيلاء الداعيين منصور

اليمن وعلى بن الفضل فيما بعد على معظم بلاد اليمن ، بالإضافة إلى ما قام به أتباع الأئمة الزيدية من الحروب ، اضطربت الأطراف على عامل العباسيين أبي الحيش ، وخرج زعماء البلاد كل في جهته ، ولم يسع أبا الحيش أمام هذه الاضطرابات إلا مهادنتهم واعترافه بما تحت أيديهم ، وذلك خضوعاً واعترافاً بسياسة الأمر الواقع . ولم يكن بُعد بلاد اليمن عن بغداد حاضرة الدولة العباسية بأقل أهمية من العوامل السابقة لأن جماعات الشيعة كانت تلجأ في نشر دعوتها ومبادئها إلى الاستتار والبُعد عن أعداء الدعوة بقدر الإمكان ، وباتخاذ الأقطار البعيدة مكاناً لنشر هذه المبادئ وتعميمها ، وقد وجد دعاة الإسماعيليين في بُعد اليمن عن مركز الخلافة بغداد وسيلة لتنفيذ مشروعاتهم ، حتى يمكن القول بأن هذا البعد ، بالإضافة إلى وعورة الطريق ، وطبيعة بلاد اليمن الجغرافية المعقدة — كلها كانت من أهم الأسباب التي حالت بين خلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين ، واكتفى الخلفاء بأن عهدوا إلى ولايتهم من جهة ، وتكليف زعماء البلاد من جهة أخرى بالقضاء على هذا التيار الجارف ، تيار الحركة الإسماعيلية ، ولكن الولاة كانوا من الضعف بمكان ، وكان تنازعهم الدائم مع زعماء البلاد المتنافرين من أهم العوامل

التي ساعدت على انتشار الحركة الإسماعيلية ؛ ولهذا كان
 لعلي بن الفضل الحق بأن يقول عندما عرض عليه الإمام
 الفاطمي « الحسين بن أحمد بن عبد الله » أن يقوم ببث
 الدعوة باليمن : « والله إن الفرصة ممكنة في اليمن ، وإن الذي
 تدعون إليه جائز هنالك » . هذا ... ومن الواضح تاريخياً
 — كما ذكرنا — في أكثر من كتاب ، أنه كان الدعاة الإسماعيليين
 خبرة ودراية باختيار الرجال ، بقدر خبرتهم باختيار الأمكنة
 الملائمة لنشر التعاليم ، فاتخذوا من مواعيد الزيارة للكوفة ،
 حيث ضريح الإمام الحسين بن علي ، وسيلة لبث مبادئهم
 وفلسفة عقائدهم ، فهناك ظفروا بمنصور اليمن الذي ينسب
 إلى عقيل بن أبي طالب وكان يدين بمذهب الإمامية
 الاثني عشرية ، فتمكن الإمام « الحسين بن أحمد بن
 عبد الله » من تحويله إلى الإسماعيلية في فترة وجيزة ، وهو
 القائل : « وكان الإمام يخصني ويقربني ويرمز بقرب الأمر
 ودنو النصر » ، فقال له : يا أبا القاسم ؛ البيت يمانى ،
 والركن يمانى ، والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، وإن يقوم
 هذا الدين ويظهر إلا من قبل اليمن ... يا أبا القاسم ؛ هل
 لك في غربة في الله ؟ قلت : يا مولاي الأمر إليك فما أمرتني
 به امتثلته ، قال : اصبر كأني برجل قد أقبل إلينا من اليمن

وما لليمن إلا أنت ، فقلت : استعن بالله على ما يرضيك .
وجاء على بن الفضل - وكان شاباً جميلاً من أدل بيت
تشيع ونعمة ويسار - إلى الكوفة سنة ٢٦٧ هـ ، فتمكن الإسماعيليون
من ضمه إلى صفوف دعوتهم ، ثم مهدوا له السبيل فذهب
مع منصور إلى اليمن ، ويروى التاريخ أن الإمام الفاطمي
الحسين أوصى ابن حوشب منصور اليمن بوصيته المشهورة
قبل ذهابه : إلى « عدن لاعة » فاقصد ، وعليها فاعتمد ،
ففيها يظهر أمرنا ومنها تعز دولتنا ومنها تفرق دعائنا .
ثم أمره بالاستتار والاعتماد على علم التأويل ، واتخاذ
التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأن يقول بقرب ظهور المهدي ،
وأن يجمع المال والرجال ، ويلزم الصوم والصلاة والتقشف ،
وأن يعمل بالظاهر ولا يظهر الباطن .
وأوصاه أيضاً : إذا ورد عليك ما لا تعلمه فقل : لهذا
من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره .
كما أوصاه علي بن الفضل خيراً بقوله : هو شاب قريب
عهد بالأمر ، فانظر كيف تسوس أمره .
ثم قال لعل بن الفضل : إن هذا الرجل الذي نبعث
به معك بحر علم ، فانظر كيف تصحبه ، واعرف له حقه
ولا تخالفه فيما يراه لك .

أجل ... خرج الداعيان من الكوفة إلى القادسية في نهاية سنة ٢٦٧ هـ . ويقول منصور : لما ودعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى أقطاع الغربية توجهت ، فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة ، ولكني سعت حادياً يقول :

يا حادي العيس ملبح الزجر بشر مطاياك بضوء الفجر
فسرت واستحسنت ذلك الفأل لما سمعته . ثم وفيت
مكة ، ومنها تابعت مع علي بن الفضل السير جنوباً حتى
وصلنا سنة ٢٦٨ هـ إلى بلدة « غلافقة » وكانت في ذلك
العهد بندراً لمدينة زبيد على ساحل البحر الأحمر .

ثم افترقا على أمل أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه
ليتعرف أحواله ، فاتجه منصور اليمن إلى مدينة « البخند »
وكانت غايته « عدن لاعنة » . ولما وصل إليها سأل عن
الداعي « أحمد بن عبد الله بن خليع » الذي كان قائماً بالدعوة
الإسماعيلية قبله ، فعرف أنه مات بالسجن عندما قبض
عليه الأمير ابن يعفر ، فمزل في داره وتزوج ابنته ، وهذا
يدل على أن الدعوة الإسماعيلية قد تسربت إلى اليمن قبل
وصول الداعيين . والتاريخ هنا واضح يشير إلى أن الداعي
الإسماعيلي السوري الكبير أبا الفوارس الذي استوطن سواد
الكوفة ، وقام بأعمال باهرة عظيمة هنالك قد أنفذ ولده

داعياً إلى اليمن ، فأظهر العجائب ، ودخل في دعوته خلق عظيم .
ثم مشى بالأقاليم فتحاً حتى أجلى بعض الأمراء عن حصونهم
ومناطقهم ، ثم إنه قاتل « القاسم بن أحمد بن يحيى بن القاسم
ابن إبراهيم الحسيني الهادي » ، وأزاله عن عمله من « صعدة »
ففرّ منها بعياله إلى الرس ، وعندما أراد الجيش الإسماعيلي
بقيادته وقتئذ إتمام مهمته بفتح البلدان والأقاليم ، أصيب
وهو يجتاز إحدى المناطق الجبلية بالبرد والشاح ، فهلك أكثره
في ليلة واحدة ، وبعد ذلك مات الداعي الإسماعيلي الصناديقي ،
وكان قد احتلّ أيضاً مدناً وقرى كثيرة ؛ وكان موته بسبب
الفصد الذي أجراه له أحد الأطباء ، وكان قد أرسل من قبل
القائم العباسي لهذه الغاية ، أمّا علي بن زكرويه (صاحب
الحال) ، وهو من دعاة القرامطة الإسماعيليين ، فقد فرّ
من سواد الكوفة إلى اليمن ، وجمع صفوفه هناك ، ثم قام بالزحف
على البلدان والأقاليم فتغلب على الكثير منها ، وأخيراً توفي
في اليمن قبل أن يتم رسالته .

يستدل من كل هذا على أن الحركة الإسماعيلية قديمة
في اليمن وقبل منصور وعلى ، وما هما بالحقيقة إلا متممان للبناء
الذي أشاده غيرهما من الدعاة الإسماعيليين المؤسسين .
ومهما يكن من أمر فإنه لمن المفيد بمكان أن نأتي

بإيجاز على ما قام به الداعيان منصور اليمن وعلى بن الفضل من أعمال في اليمن وما باشراه من حروب ، ثم كيف انتهى أمرهما أخيراً ، وذلك لعلاقته المباشرة بالموضوع . فمن الواضح أنهما قد ذهبا نهجاً واحداً في نشر دعوتيهما ، وبعد عامين من وصولهما أصبح لكل منهما جماعة كبيرة تأتمر بأمره ، وتخلص له أشد الإخلاص ؛ وطبيعي في مثل هذه الأحوال أن يصبح هم كل منهما الحصول بعد ذلك على الأموال الكافية لتنفيذ الأغراض ونشر المبادئ والأفكار ، والاستيلاء على المراكز الهامة والمواقع الحساسة . فأصدر منصور أوامره بجمع الأموال وفق الطريقة المتبعة في المشرق ، وهكذا فعل على بن الفضل وبعد فترة قصيرة تمكن منصور من احتلال « عبر محرم » ، ثم جمع جمعاً من أتباعه واستولى على جبل « الحميصة » ، وبعدها هاجم « بيت ريب » ، وهو رأس « مسور » ثلاث مرات حتى استولى عليه ، وكانت هنالك خطط مدبرة تقوده من نصر إلى نصر .

ويقول تاريخ اليمن إنه عندما استولى على جبل مسور من أعمال صنعاء ، كان معه ثلاثة آلاف محارب فبنى في هذا الجبل حصناً وجعله قاعدة لشن الهجمات على المواقع الأخرى ، ومن ثم استمر في زحفه حتى استولى على بلاد

« عيان » و « بنى شاور » و « حملان » ، ثم على « ذختار »
وملك « شبام حمير » وجبل « كوكبان » ؛ وهما أقبل عليه
الناس يدخلون فى طاعته طوعاً أو كرهاً ، فانضوى الكثير
من بنى يعفر ، وملوك حمير فى الدعوة طائعين أو كارهين
وقويت فى أرض اليمن دعوته ، وعلت كلمته .

ولم يقف نشاط منصور عند هذا الحد بل أرسل جيشاً
لمساعدة ابن الفضل حين أحيط به قرب « تهامة » وكان
من أثر ذلك أن عاد ابن الفضل سالماً إلى مركزه ،
وكان قد احتل « الحج » و « أبين » ودخلت قبائل مذحج فى
طاعته ، وأخيراً احتل « المذينة » سنة ٢٩٤ هـ ثم دخل
حصن « التعكر » ، ومنه جاء إلى بلاد « يصب » فدخل
« منكث » ثم هجم على صنعاء ، ودخلها لأول مرة سنة ٢٩٥ هـ .

ولم يقف طموح ابن الفضل عند هذا الحد ، بل استمر
فى فتوحاته حتى دانت له جميع بلاد تهامة وزبيد ، وفيها
قتل عامل العباسيين يومئذ واسمه « المظفر بن الحاج » .
ويصادف فى هذه الأثناء أن يكون الإمام « عبید الله المهدي »
قائماً بشئون الإمامة الإسماعيلية فى سلمية - سوريا ، وهذا الإمام
وضع ثقته بمنصور اليمنى دون على ، فكان ينحصر بكل عطفه ، ويعطيه
المسئولية الأولى المباشرة عن شئون الدعوة فى اليمن معتبراً ابن

الفضل دونه في الرتبة ، فكلفه إرسال الدعوة من قبله إلى الأقاليم الهامة ، فبعث منصور ابن أخيه المهيم إلى السند حيث استقر في ملتان . وغرس فيها بذور الدعوة ، واستجاب له الكثير من أهلها ، وأرسل محمد بن عبد الله بن العباس داعياً إلى مصر ، فوزع الدعوة في سائر أرجائها . وفي تلك الفترة بالذات أرسل الإمام المهدي إلى اليمن « أبا عبد الله الشيعي » فتتلمذ على منصور لعدة أشهر ، ومن هنالك ذهب إلى المغرب ورافقته أبو الملاحف الذي عاد لفوره بسبب مرض والدته ، فسير مكانه إبراهيم بن إسحاق الزبيدي ، وكان منصور قد أرسل الداعيين أبا سفيان والحلواني من قبل .

واستمر الداعيان منصور وعلى يعملان في اليمن بهمة ونشاط حتى أصبح الجزء الأكبر منه خاضعاً لنفوذهما .

هذا ... ويحدثنا التاريخ أن الإمام المهدي لما أرسل الداعي ، « أبا عبد الله الشيعي » إلى اليمن ليتدرب على يد منصور أوصاه بقوله : « امثل سيرته ، وانظر إلى مخارج أعماله ومجاري أفعاله فاحتذها وامثلها واعمل عليها » فأقام عنده يشهد مجالسه ، ويأخذ منه ، ويخرج معه في غزواته لا يفارقه حتى بعثه أخيراً إلى المغرب ، وكان منصور قد أرسل من قبله الداعيين الحلواني وأبا سفيان إلى شمالي أفريقيا ،

ولما علم بوفاتهما قال لأبي عبد الله الشيعي : إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وليس لها غيرك الآن ، فبادر فإنها موطأة لك ممهدة .

هذا ... وللدلالة على أن اليمن كان لها أهمية كبرى بنظر أئمة الإسماعيليين ، أن الإمام عبید الله المهدي حين هجر سلمية إلى المغرب ، فكر بأن يذهب إلى اليمن ويستقر فيها ويجعلها عاصمة لملكه ، ولكن انحراف علي بن الفضل ، وخروجه على الدعوة ، جعله يعدل برنامجه ويتجه من القطر المصري إلى شمالي أفريقيا .

ونعود لنذكر شيئاً عن مدى علاقة علي بن الفضل بالأئمة الفاطميين ، وسبب خروجه فنقول : إن علياً لما استقر باليمن ظل على ولائه للدعوة الإسماعيلية في سلمية ، وقد كان يظهر التقشف والورع والتقوى ، فكان نهاره صائماً وليله قائماً ، فأنس إليه وأحبه كل من عرفه ، ثم إن أتباعه قلده أمرهم ، وجعلوا حكمهم إليه ، وقد جاءوه مرة طالبين إليه أن ينزل من حصنه في جبل « سرويافع » ويسكن بينهم فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال إلا أن يعطوني العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر ، ففعلوا له ذلك وحلفوا له على الطاعة ، وألا يخالفوه بما أمر فوعدهم خيراً .

ومن هذا نرى أن ابن الفضل ظل مدة في بلاد اليمن على ولائه للدعوة الإسماعيلية وهذه المدة لا تقل عن عشرين عاماً. وقد اتهم بعض المؤرخين ابن الفضل أنه أحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات ، كما أظهر المجوسية ، وكفر بما أنزل الله عز وجل ، إلى ما هنالك من أقوال وتهم لا مجال لها في هذا الكتاب .

ومن المضحك المستغرب أنهم يروون أنه لما دخل « أبلخند » خطب شاعره على منبرها فقال :

نخذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزاريك ثم اطربي
تولّي نبيّ بنى هاشم	وهذا نبيّ بنى يعرب
لكل نبي مضي شرعة	وهدي شرائع هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
فلا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب

ومهما يكن من أمر فكل هذا لانراه جديراً بالبحث عن على بن الفضل . فنحن تهمنا فتوحاته ، وسبب إعلانه الاستقلال عن الدعوة الإسماعيلية وخروجه على رفيقه في الجهاد. من المعروف أن « على بن الفضل » كان ذا شخصية بارزة ، وقائداً بارعاً ، وحاكماً ناجحاً ، ووطنياً متحمساً ، فخوراً بقحطانيته ، ذا سياسة بارعة حكيمة في السلم والحرب ،

وصاحب شهامة وإقدام وإيمان للعهود والمواثيق وحماية المظلومين
ونصرة مبادئ الحق .

ولم يستطع منصور اليمن أن يقلل من نفوذه ، أو يعزله
عن الدعوة ، أو يطرده من اليمن وهو يعلم علم اليقين ميوله
الاستقلالية وآراءه المتطرفة في الحكم ، بل على العكس كان
مضطراً إلى مساعدته في حروبه ، وتهنئته على انتصاراته ،
حتى أعلن ابن الفضل نفسه ثورته وخروجه على الدعوة .

وقد يكون بعيداً عن الواقع أن يقبل المجتمع اليمني رئاسة
ابن الفضل مدة عشرين سنة أو أكثر لو أنه كان يرتكب
ما نسب إليه من الفواحش ، وقد يجوز أنه بالغ في يمينته ،
وتطرف في قحطانيته ، حتى تعدى حدود الدين ، أو أن
نفسه العالية أنفتحت أن ترضخ لحكم أحد ، أو تدخل تحت
نفوذ أى إنسان ، بجانب إثارة الإمام عبید الله المهدي منصور
اليمن دونه . كل هذا - كما اعتقد - شكل الأساس لهذه القضية .

أما بالنسبة للدعوة الإسماعيلية فإنها عدته قد نكث العهد
واستهواه الشيطان وأضله ، ففارق الدعوة ، وخرج من الملة ،
وافترى على الله وعلى أوليائه ، مقتدياً بالمضلين من قبله الذين
كانوا له شر أسوة ، واستمال الجاهل فكانوا له الأنصار والأتباع ،
وارتكب المحارم ، ومال إلى الإباحات ، وكفر بعد إيمانه ،



وباء بلعنة الله .

ولا يمكننا ونحن في معرض الحديث والمقارنة أن نقارن ما قام به ابن الفضل إلى ما قام به زميله منصور اليمنى الذى ظل على ولائه للأئمة الفاطميين حتى وفاته . فكان دائم الاتصال بهم فى جميع المناسبات ، يتلقى أوامرهم ، ويستعين بإرشاداتهم ، متمسكاً بقوانين الدعوة ، مطيعاً لأوامر من هم أعلى منه رتبة فيها ، قائماً بأداء واجباته المفروضة عليه فى سبيل دعوة آمن بها ، واعتقد بقدسيتها ، بعكس ابن الفضل الذى ظل يخادع منصور اليمنى ويماطاه ويقول له : « إنما أنا سيف من سيوفك » ، والمنصور يهابه ، ويخافه على نفسه لما يرى من شهامته وإقدامه . وتمشياً مع هذه السياسة أظهر منصور فرحه لما فتح ابن الفضل صنعاء سنة ٢٩٩ هـ ، واجتمعاً وتشاوراً فى فتوحهما ، وكان منصور حذراً ويقظاً يرى أن وقف الحرب والفتوح من قبلهما فيه مصلحة كبرى لهما ، لأن نفوذهما فى البلاد التى فتحت لم يكن قد رسخ ، وكان يخاف أن يدخل فى حرب جديدة ، فتكون النتيجة خروج البلاد التى فتحوها من تحت أيديهم ، فقال لصاحبه ابن الفضل : قد ملكنا اليمن بأسره ، ولم يبق لنا إلا القليل ، فعليك بالتأنى والوقوف بصنعاء سنة ، وأنا بشبام فيصلح

كل واحد منا ما استفتح وبعد ذلك يكون لنا نظر ، فإنك إن خرجت من صنعاء خالف أهلها ، وفسد علينا ، ماملكتنا . ولكن ابن الفضل حارب مخالفين البياض بتهامة ، وكاد يقع لقمة سائغة في أيدي أعدائه ، لولا أن أسرع منصور اليمن إليه ، وقدم المساعدات . كما سبق أن ذكرنا .

ولما تمكن نفوذ ابن الفضل ، وأضحى سيد اليمن الأول ، أعرب عما يجيش في نفسه من رغبة ملحة في تكوين دولة يمنية مستقلة عن العباسيين والفاطميين معاً . كما فعل أبوسعيد الجنابي الذي كون أول دولة إسماعيلية مستقلة في البحرين ، فكتب إلى منصور قائلاً : « إن لي بأبي سعيد الجنابي أسوة ، وأنت إن لم تنزل إليّ ، وتدخل في طاعتي ، نابذتك الحرب » . فكتب إليه منصور يعاتبه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التي أخذها عليه الأئمة ، كما ذكره بخطر التفكك ، كيلا يتلاشى أمر الدعوة الإسماعيلية باليمن . وقال في كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً إلا ببركة الدعاء إليه وقد أعطينا من العهود ما قد علمته ؟ فأجابه ابن الفضل بقوله : إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها .

وتابع منصور إرسال الرسل إليه يعظه ويذكره وينهاه ، ولكنه ظل على التمادي في إنكاره . وتناهى في إصراره ،

وكان معنى ذلك بدء الصراع بين الداعيين الإسماعيليين في اليمن أو بعبارة أصبح بدء الصراع بين أهل الدعوة أنفسهم الموالين للفاطميين والخارجين عليهم ، كما أن معنى ذلك إنذار إلى منصور بأن يستعد للقتال ، فما كان منه إلا أن حصّن بلاده ، ولا سيما جبل مسور ، وعول على أن يلاقي الصدمة وحده ، لأن الخليفة الإمام عبيد الله المهدي الفاطمي لم يكن قادراً في هذه الفترة ، وهو بشمال أفريقيا ، على إرسال أية مساعدة .

وقامت أخيراً الحرب بين الداعيين سنة ٢٩٩ هـ ، فاستولى منصور اليمن على شبام حمير ، وحاصر بلدة الظلمة ، حيث كان ابن الفضل وأتباعه ، وقطع الميرة عنهم حتى أصابهم الجوع الشديد ، فأكلوا لحم الحمير والجلود ، ثم أخذ يتتبعهم من مكان إلى مكان ، كما روى المؤرخ إدريس عماد الدين . وكان بينهما بعد ذلك وقائع كثيرة وقتال شديد ، ثم قوى أمر ابن الفضل أخيراً فللك صنعاء ، وتمكن في النهاية من محاصرة المنصور ثمانية أشهر حتى مل المقام ، فلما علم المنصور بذلك طلب الصلح ، فقال ابن الفضل : لست أبرح - وقد علم أهل اليمن قصدي لمحاصرته - إلا أن يرسل إلى بعض ولده ، فيكون ذلك لي مخرجاً عند الناس ، ويعلمون أنه قد دخل في

طاعتي . فأرسل إليه ولده ودفعه بالتى هى أحسن : فرجع ابن الفضل إلى المديحرة وأقام عنده ولد المنصور سنة ثم رده أخيراً إلى أبيه .

وسهما يكن من أمر فإن هذا الصلح لم يقض على النزاع بين الطرفين . بل زادت هوة الخلاف اتساعاً بين أتباع الدعوة الإسماعيلية فى اليمن نفسها . ومن ثم أصبح الجميع هدفاً لهجمات المنافسين ذم فى الحكم من الأمراء وطلاب الزعامات فى اليمن .

هذا ... وهناك قول يمكن الأخذ به عند بحث هذا الموضوع ، هو أن ابن الفضل إنما خرج عن طاعة منصور اليمن مدفوعاً بتأثير الداعى الإسماعيلى للقطر المصرى « فيروز » الذى زين له حب الرئاسة والزعامة والاستقلال بحكم اليمن وحده . ولكنه لم يتمكن من التغلب على أعدائه والانفراد بالزعامة ، وبذلك لم تتحقق مطامعه : بل أخفق فى تكوين دولة ثابتة الأركان تصمد أمام العواصف والأنواء ، فظل لذلك حتى قتل مسموداً بيد أحد الأطباء سنة ٣٠٣ هـ .

وبعد وفاته زحف الأمير أسعد بن أبى يعنفر إلى صنعاء . وحارب أتباعه وقتلهم واحداً إثر آخر ، ثم أرسل رعوسهم إلى مكة حيث عرضت فى موسم الحج . أما منصور

فبقى أميناً على عهده للمفطميين . ولكن مركزه تضعف ،
فالتجأ إلى مسور . وأقام مع أتباعه في الأماكن الحصينة النائية
يدافع عن نفسه دون أن يستطيع التقدم خطوة واحدة ،
متخذاً التستر والتقية و كتمان السر طريقة له في نشر دعوته .
حتى وافته المنية سنة ٣٠٦ هـ .

خلفاء منصور وابن الفضل

من الجلى الواضح أن ثورة ابن الفضل على الدعوة الإسماعيلية ،
كانت من أهم العوامل التي أدت إلى إضعافها . وشلت نشاطها
وتقدمها ، وذلك لأن أعداء الدعوة والمتربصين بها اتخذوا
من الحرب الداخلية فرصة لشن الهجوم على أنصارها كافة ؛
وعندما ظفروا بهم أعملوا فيهم القتل والنهب والتهجير ، وزادت الأمور
تعقيداً بعد وفاة منصور اليمن ، فقد برز إلى المجال الاختلاف
الذي وقع بين أبنائه وبعض الدعاة على المنصب . ومن المعلوم
أن المنصور قبل وفاته رشح « عبد الله الشاوري » للقيام
بشئون الدعوة بعد وفاته ، وذلك بكتاب أرسله إلى الإمام
« عبيد الله المهدي » في المغرب ، في حين أن والده « حسن »
كان يعتقد أن هذا الأمر بعد وفاة والده صائر تلقائياً إليه ،